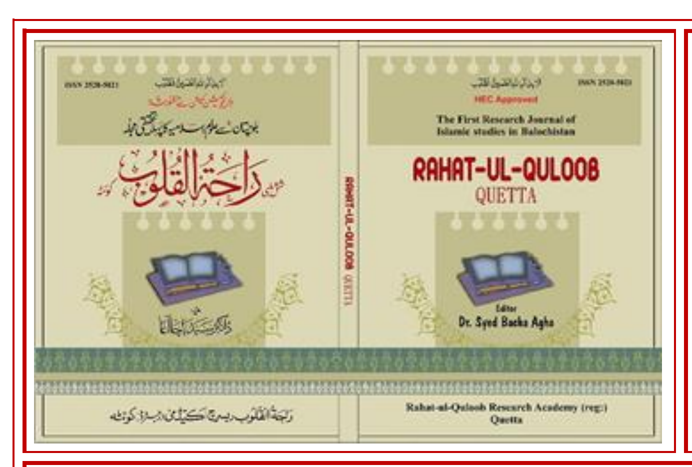
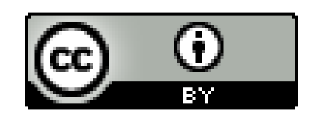






RAHAT-UL-QULOOB
Bi-Annual, Trilingual (Arabic, English, Urdu) ISSN: (P) 2025-5021. (E) 2521-2869
Project of **RAHATULQULOOB RESEARCH ACADEMY,**
Jamiat road, Khiljiabad, near Pak-Turk School, link Spini road, Quetta, Pakistan.
Website: www.rahatulquloob.com
Approved by Higher Education Commission Pakistan
Indexing: » Australian Islamic Library, IRI (AIOU), Tahqeeqat, Asian Research Index, Crossref, Euro pub, MIAR, ISI, SIS.

TOPIC:

أدب المقـاومة في أقاليم توات جنوب الجزائر

Literature of Resistance in the Provinces of Touwat, Southern Algeria

AUTHORS:

1. Prof. Dr. Ahmed Jafri, Ahmed Deraya adrar Afriqi University, Al-Jazaer
   Email: adjaafri@univ-adrar.dz
   orcid id: https://orcid.org/0000-0003-4743-3009
2. Dr. Muhammad Iqbal, Assistant Professor, NUML, Islamabad.
   Email: mhiqbal@numl.edu.pk
   orcid id:https://orcid.org/0000-0002-5633-4988

How to Cite: Jaafri, Prof Dr Ahmad, and Dr. Muhammad Iqbal. 2021. “ARBIC: أدب المقـاومة في أقاليم توات جنوب الجزائر: Literature of Resistance in the Provinces of Touwat, Southern Algeria”. *Rahatulquloob* 5 (1), 14-26. https://doi.org/10.51411/rahat.5.1.2021/181.

URL: http://rahatulquloob.com/index.php/rahat/article/view/181
Vol. 5, No.1 || January–June 2021 || ARABIC-P. 14-26
Published online: 05-03-2021

QR. Code



أدب المقـاومة في أقاليم توات جنوب الجزائر

Literature of Resistance in the Provinces of Touwat, Southern Algeria

[1] أحمد جعفري، [2] محمد إقبال

ABSTRACT:
Arabic literature of resistance in general and Algerian in particular in its field championships and the good management of their proud leaders, inflamed many *Touwatia* feelings and interacted with them positively with many poems and creative texts, describing proud and sometimes inciting callers, and disaffected revenge from the scourge of injustice and occupation crimes at another time. The literature of resistance or political poetry in its broadest and most comprehensive sense is poetry that is organized in a matter of politics or governance, and it is in many forms, including national poetry that praises the glories of the nation, including the liberal poetry that has been associated with the emergence of resistance movements and liberation organizations in the Arab world against modern forms of colonialism, Thus, this type incites and calls for liberation from colonialism and accompanies these movements in its path. This literary paradigm has determined the fact that the poets of *Touwat* would not separate them from the concerns of their nation and the issues of their religion, the barrier of time and place or the rest of the other barriers, so they recorded their national presence with full pride and pride, and these texts were the best testimony of the impact of all of them on the course of the nation's events, so they participated in providing them first, history is second to it, which reflects the culture of everyone and their follow-up to all historical events.
Keywords: Arabic Poetry, Resistance Literature, Touwat, Algeria.

لقد ألهبت المقاومات العربية عامة والجزائرية خاصة في بطولاتها الميدانية وحسن تدبير قادتها الأفذاذ عديد المشاعر التواتية وتفاعلوا معها إيجابًا بعديد القصائد الشعرية والنصوص الإبداعية واصفين مفتخرين وداعين محرضين حينًا، وساخطين منتقمين من ويلات الظلم وجرائم الاحتلال حينًا آخر.

وأدب المقاومة أو الشعر السياسي في معناه الأوسع والأشمل هو الشعر الذي يُنظَم في شأنٍ من شؤون السياسة أو الحكم، وهوضروب عدة منها الشعر الوطني الذي يتغنى بأمجاد الوطن، ومنها الشعر التحرري الذي ارتبط بظهور حركات المقاومة والمنظمات التحررية في الوطن العربي ضد أشكال الاستعمار الحديثة، فجاء بذلك هذا النوع محرِّضًا وداعيًا إلى التحرر، من قيد الاستعمار ومُصاحِبًا لهذه الحركات في مسيرتها. ولعلَّ صرخة التواتيين في وجه المحتلِّ بشكلٍ عامٍ كانت كجميع الصرخات في هذا المجال قديمةً وممتدةً امتداد ظهور الإنسان على وجه هذا الإقليم، ولعل أقدم ما حفظتْه لنا ذاكرةُ الزمن في هذا المجال وتناقلته الأجيالُ جيلًا بعد جيلٍ صرخة الشيخ سيدي محمد التواتي التي انطلقت من رحم القرن التاسع الهجري الخامس عشر

الميلادي، وما سجَّله وبلغ صداها آذان المحتل الإسباني لمدينة وهران حينها. والشيخ سيدي محمد التواتي هو واحد من أبرز علماء بجاية خلال القرن التاسع الهجري حيث أسس بها زاوية مشهورة، وعُرف بوقفته البطولية في وجه المستدمر الإسباني وله في ذلك نص شعري حرض به أهل وهران على التصدي للغزو الأسباني، والدفاع عن مدينتهم، كما يقول في مطلع هذه القصيدة[1]:

يا أهل وهران انظروا نظر شفقة ... لبلدتكم من قبل أن تردت
وقبل مجيء المنشئات ببحرها ... وأي قلوب عندها مستقرة
ولا تَكلُوها غيرَكم ولئن يكن ... فما غائب مثل القَيم ببلدة

إلى أن يقول:

فجودوا بفضل المال في حفظ كله ... وأهل وجيران وشيخ وصبية
وما يغني عنكم مالكم إن أتاكم ... عدو بليل بسدفة سحرة
وقد عظم الله الديار خروجها ... فحذرتكم والله يعلم نيتي
فإن لم يكن في الغرب أكبر غيرة ... وفي الأندلس فجعة أي فجعة

إلى أن قال:

فلا تهملوا أمر الأعادي فإنهم ... بحال اجتماع واتفاق وشدة
وقد قطعوا قطعا فإن ظفروا بكم ... فقد ظفروا وطرا بأهل الجزيرة
وقد كانت بلاد الغرب تحمي ديارهم ... وتنجدهم بالعون في كل وجهة

وأخير عاد إلى ضرورة التأكيد على رجال أهل الجزيرة بالنظر إلى خبرتهم الحربية في حماية المرسى وعدم التفريط فيه لأن ضياعه كما قال هو ضياع للبلاد الإسلامية شرقًا ومغربًا.

وإن ضاع مرساكُم فإن ضياعَه ... ضياعُ بلاد الله شرقا وقبلة
ولا يَحم مرساكُم ضعافُ رجالكم ... ولا البدوُ بل تحميه أهلُ الجزيرة
فإن لهم بالطعن والضرب خبرةٌ ... وكم فتكوا بالكفر أكبرَ فتكة
أإخوانَنا في الله ألقوا مسامعًا ... ولا تُهملوا ما أبرَزَتهُ قريحتي

والشاعر سيدي محمد التواتي في صرخته وغيرته يذكرنا بالشاعر العربي لقيط بن يعمر الأيادي في ندائه المستعجل لقبيلته أياد ينبههم فيها من غدر الملك كسرى، حين قال:

أبلغ إيادا وخلل في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

فالشاعر لقيط بن يعمر، وإن قبض عليه وزج به في السجن أخيرًا إلا أن صرخته بقية شاهدة على وفاء الرجل وغيرته على أبناء قبيلته. وفي القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي سجَّل التواتيون حضورهم الأدبي في الحملة

الصليبية الفرنسية على مصر بقيادة نابليون في سنة 1798م[2]. وضربهم للأزهر الشريف بالقنابل من القلعة، واتخاذه اصطبلا للخيل، ومحاولة اقتلاء المصريين عنوة من الإسلام. حيث تحدث عن ذلك مطولا كل من الشاعر سيدي عبد الله بن سيدي عبد الرحمان بن عمر التنلاني (1221هـ) والشاعر الشيخ سيدي المختار الكنتي (1226هـ) والشاعر سيدي أحمد زروق البداوي (1244هـ) وغيرهم. يعتبر الشيخ سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي عبد الرحمان بن باعومر التنلاتي (1221هـ) من الأوائل الذين تفاعلوا مع هذا العدوان الغاشم، وذلك حضوره باكرًا في الموضوع بنظمه لقصيدته[3] المعروفة بـ "الحلة الفاخرة في طلب فتح مصر والقاهرة"، والتي وردت في أزيد من أربعين بيتًا، وقال فيها على إيقاع البسيط، جاء فيها:

الله أكبر جل الخطب عيانا وقد أتينا ومنا أصل بلوانا
يارب قاعدة الإسلام حل بها أمر عظيم لهالنا وأشجانا
الروم أخزاهم الإله قد ملكوا مصر العتيق وجزءوه سهمانا
الكفر قد خففت أعلام رقبته ودينناا قد بداه اليوم نقصانا
يا غمة لبني الإسلام نالهم بهذه النكبة الصماء خسرانا
يا بهجة النور يا مصراه حل بنا بما دهاك تحسر..........

وبعد هذه الاستغاثة المدوية لما حلَّ بمصر العتيق من كفار الروم شرع الشاعر في تعداد مظاهر الخسارة والخراب الذي سيحل من جراء هذه النكبة، فلا أحد يستطيع بعد الآن أن يرتاد المساجد أو المدارس، ولا أحد يستطيع أن يتصفح المصحف الشريف ولا أن يفتح كتابا من تلك الكتب الكثيرة التي تعمر بها خزائن مكتبات الأزهر الشريف، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل إن الفساد انتقل إلى المساجد التي حولت إلى كنائس لعبادة الأوثان:

من للمساجد يا غوث يعمرها من للمدارس يستجيب لهفانا
من للمصاحف والكتب التي جمعت بالأزهر الرحب يكفلنها يقظانا
مَن للمشاهد في سفح المقطم مَن لمشهد السبط يحفظنه إعلانا
أتنشرن المسوخ وسط مسجدنا ويعتريه من أهل الكفر نشوانا
ويعبَدنّ الصليب في مساجدنا ما مثلها نكبة في الدهر تغشانا

بعد هذا لجأ الشاعر إلى الله عز وجل متضرّعًا وداعيًا نصره وتأييده للمؤمنين بأن يردَّ عليهم ديار الإسلام، وأن يفتح عليهم قاعدةً إسلاميةً أكبر لتنسيهم أحزانهم في ما حلَّ بهم، وتكبَّتْ عنهم أفراح جيش الروم.

والشاعر في دعائه وتضرعه لله سبحانه وتعالى بدا مُلحًّا حين تشفع في ذلك بالعرش المجيد، وبالكرسي الجليل، وباللوح المكرم والملائكة المقربين، بالإضافة إلى المشفع أحمد, وبقية الرسل الكرام، وبآل بيت النبي وجملة الصحب والأئمة الكرام:

إن لم تعاف وتعف يا رحيم فمن للمؤمنين مؤيدا ورحمانا

إنـا استجرنا بك اللهـم يا صمـد فأنف جمع العدا عن قطر مصرانا

وقد تشفعنا بالعرش المجيد وبالـ ـكرسي الجليل فلا تبق من شانا

وبالملائكـة المقـربيـن وباللـو ح المكـرم يـا سميـع بنـجوانا

وبالممجد أحمد الشفيـع وبـالـر سل الكـرام ومـن بالـدين إدّانـا

وآل بيت الرسـول والمحـب لهـم وجملة الصحب انصـرنا وأعوانـا

وبالأئمـة أهـل العلـم كلـهـم والأوليا وبـالأبـرار أعيـانـا

بالغوث بالنقباء السالكيـن وبالـ ـأفراد يـارب لا تخيـب دعـانا

اردد على ملة الإسلام مصر وخـذ أخذ عزيز طـغـاة الكفـر هـوانا

وافتح على المسلمين بعدُ قاعدة تفوق مصـر عمـارة وبنيـانـا

لتكبت الرومـ والإسلام في فـرح ينسيهـم ما مضـى والأمر برهانا

ورد ألفتنا وارحـم ضـراعتـنا وفك مـن أيـد أهـل الكفر أسرانا

وقر أعيـننا بـذاك عـن عجل إذ لـم تـزل يا عظيـم النول منانا

الله ألله جـل الله خـالـقـنـا رب رحيـم تعـالى الله مـولانـا

من أنت ناصـره لايختشي أحـدا ومن خذلـت فـلا يـزال تلـفانا

فاقبل ضراعتنا إليـك يـا أحـد وأغننـا بـك يـا ذا المن سبحانا

وفي الأخير ختم الشاعر نصّه بجملةٍ من الأدعية على عادة كثير من الشعراء في مثل هذه المناسبات طالبًا العفو والمغفرة لما اقترف من مظالم بسبب كثرة الذنوب، فالسعيد كما قال – هو سوى من وهبه الله صدق التعبد في السر والعلانية:

ظلمنا أنفسنا والعفو منـك لنـا فضـلا فليـس إلى سواك شكـوانا

منا الجفاء ومنك الحلـم يا أملي أسبل علـى عبـدك المغتر إحسانا

نـور بصائرنـا تفضـلا وأزل غشاوة الذنـب يا مـن ليس ينسانا

لا تهلـكنا بما اقترفنا من سفـه وارفـع يـد الأخـذ عنا منك نجانا

عودتنا كرما فاختـم علينـا بـه إذ أنت أهل الجـود قد كان ما كان

رحماك نرجوه يا رحمان هبه لنـا ت ولم يزل حفظك الجميل يرعانا

ليس السعيد سوى من قد وهبت له صـدق التـعبد أسـرارا وإعلانا

اغفر لنـا يارب كـل الذنـوب ولا تعجـل عواقبـنا ظلمـا وطغيانا

واجعل الهي ختـم العمر منا على الدين القويـم وأحسن فـيه محيانا

وارحم أيمّنا والوالدين ومن يُنمى إلينا ومن بالقرب يغشانا
وصل ياربنا على الرسول الذي فاق النبيئين منصبا وتبيانا
وءاله الغر والأصحاب ما طلعت شمس وما هزت الجَنُوبُ أغصانا
وما تملق عبد الله ملتجئا ببابك الرحب يرجوا منك غفرانا

والشاعر الشيخ سيدي عبد الله[4] بن سيدي عبد الرحمان بن باعومر التنلاني، هو واحد من أكبر وأهم علماء وفقهاء توات، أخذ عن والده وعن الشيخ سيدي محمد بن أحميد، وكان مُلازمًا للشيخ سيدي عمر بن الحاج عبد الرحمان المهداوي توفي سنة (1221هـ) ودُفن بقصر باعبد الله ضواحي المدينة أدرار. ومن الشعراء التواتيين الذين تفاعلوا مع هذه الحملة الصليبية، نذكر الشاعر سيدي أحمد زروق[5] الجعفري البداوي الذي اتخذ من المناسبة نقطة ارتكاز أساسية في تشجيعه وتحريضه على الجهاد ضد جيوش الكفر. ولد أبو العباس أحمد زروق بن صابر البداوي الجعفري بقصر بودة، وبها ترعرع وأخذ عن الشيخ سيدي محمد الونقالي وعن الشيخ سيدي محمد بن احميد الزجلاوي، ثم سافر بعد ذلك لفاس، وأخذ عن علماء أجلاء، منهم الشيخ التاودي، ولما بلغ ما بلغ من مقام العلم تولَّى شؤون القضاء بالديار الفاسية نفسها، وليعود بعد ذلك إلى مسقط رأسه توات، وبها تصدَّر للقضاء والفتوى كذلك لفترة معتبرة من الزمن، تُوفِّي على الأرجح يومَ الأربعاء السابعة عشر من شهر رمضان عام 1245هـ وقيل سنة 1244هـ.

وعلى خلاف الشاعر سيدي عبد الله، فقد وجد الشاعر الشيخ سيدي أبي العباس سيدي أحمد زروق بن محمد بن موسى بن صابر الجعفري (1244هـ) في حملة نابليون على مصر سنوات (1801/1798)، وما أبداه المسلمون من بسالة وشجاعة في مقاومتهم للجيوش الفرنسية في دخولها إلى باحة حرم الأزهر الشريف، والتي أنست جيوش الروم جميع ما حقَّقوه من نصر في جزيرة مالطة – قلت – وجد الشاعر في كل هذا وغيره مناسبة متميزة للوقوف عندها بهذه القصيدة[6] المعبِّرة التي جاءت على إيقاع السريع، وشارك بها عموم المسلمين فرحتهم بهذا النصر، وراح يذكر فيها الفرنسيين بسوء طالعهم:

قل للفرنسيس كبا جدكم وردتم وردا بلا مصدر
البر والبحر بساط لكم لا فوت إن الله منهم بري
حسبتم مصر كمالطة وصادق اللهجة كالمفتري
هيهات هيهات لا مفر لكم إلا على الصارم والسمر
من ءال عثمان أتاكم فتى لأخذ ثأر الدين في معشر
أسيد غضاب فوق صافنة في طالع يسمو على المشتري
تحن للهيجاء أنفسهم من غير ما درع ولا مغفر
يعتقدون القمل حلو الجنا وطعمه أحلى من السكر
نفوسهم باعوا وأموالهم بجنة وربنا المشتري

كل فتى يا ويلكم باسل ... ندب همام طيب العنصر
جموعكم ما بين قتلى ومن ... في القيد يختال بلا مئزر
جنى على كلكم راية ... وقول جمهوركم المفتر
ما هي بالأولى عليكم لنا ... وما عددتم قط بالخنصر
وقائع بالشام غر لنا ... هلكتم فيها بلا منكر
وحبذا يوم العرائش في ... .
حشدتم الأبطال في زعمكم ... فشُربوا كأس الردى الأحمر
ما فات أنجاد السواحل من ... قد فر منكم يا بني الأصفر
ولا نجا من مر في زورق ... من طالب في الشيح الأخضر
طالعة من بعض أجنادنا ... قد جلدتكم دونما عسكر
لولا البحور الخضر من دونكم ... ما عمركم يمتد في معمر
ولا نجوتم من فوارسنا ... في حضر كنتم أو في سفر
ويل بني الصفر أيديهم ... صفر من المامول والمتجر
دماؤكم طلت وأموالكم ... ولكم الويلات في المحشر
أدام ربي نصر دين الهدى ... وذل عباد الهوى الأخسر
وأيد الله أئمتنا ... بمرد من ملكه الأكبر
واختص مولانا سليمان ... بالتمكين والتأييد والظفر
ونصر الله عساكرنا ... بحرمة المختار في مصر
صلى عليه الله ما ابتهجت ... نفوس أهل الحق بالوطر
خير صلاة وسلام بلا ... حد يفوق أرج الزهر
ورضي الله عن الآل والـ ... أصحاب أعلام الهدى الغرر

والشاعر في معرض حديثه عن نشوة الفرح في نصر المسلمين على الروم، راح يذكر الأعداء بداية بجوهر الفرق بين مصر التي تحامى أهلها لنصرتها[7] وبين جزيرة مالطة التي استسلمت في وجه جيوش الإنجليز الذين لم يجدوا مقاومة تذكر، وأصبحت الجزيرة من يومها مركزا لحماية السفن التجارية بين إنجلترا والهند والصين. والشاعر حين يتحدث عن الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي فهو يراهما وجهان لعملة واحدة عي عملة الكفر والحروب الصليبية. فإذا كان النصر حليف الكفر في مالطة فهيهات أن يتكرر في مصر التي اتحد فيها الأهالي تحت راية الجهاد، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله عز وجل، فكان النصر حليفهم، وكان

جموع العدو ما بين قتلى وما بين مقيد في الأسر. والشاعر سيدي أحمد زروق، وهو يتحدث عن هذه الوقائع الحية من قلب المعركة، راح يذكر جيوش الكفر، ومن سار على نهجهم بوقائع معركة الشام التاريخية التي تحطمت فيها جيوش نابليون على أسوار عكة بفلسطين، ليخلص أخيرًا إلى التضرع والدعاء راجيًا دوام العزة للإسلام والمسلمين والتأييد لأئمتهم، والنصر لعساكرهم.

وفي المناسبة ذاتها عثرنا على مقطع من قصيدة[8]، نظمها الشيخ سيدي المختار الكنتي (1226)، واستنفر بها فوارس المغرب العربي من عرب وعجم لنجدة هذا القطر العزيز مصر من براثين جيش الفرنسيس حيث يقول:

فلا غيور يذود عن مضاجعها	ولا جسم له عزم وإيقان
ظل هذا يذود القلب من أسف	إن كان في القلب إيمان وإحسان
يا أهل مغربنا هبّوا لقارعة	كانت بساحتكم والقلب ولهان
أين الفوارس من عرب ومن عجم	أين الملوك وعدنان وقحطان
وراكبين جياد الخيل صارمة	كأنها في مجال السيف أقيان
أحملوا على الروم............	ولا تبغوا عليهم فإن النصر معوان
لا يُدفع الكفر إلا باليقين فلا	تغررك منه عساكر وأعوان
لا تدفع الظلمة الدهماء غاشية	إلا بنور من الرحمان تبيان
لم تكفهم أندلس إذ أحاطوا بها	وسبتة ومليلة و...........
حتى أتوكم بدار عزكم فغدوا	يمحون دينكم في الحين نقصان

ونرى الشيخ سيد المختار، وهو يحرض أبناء جلدته لنصرة إخوتهم في مصر العزيزة يذكرهم أولا بضرورة الغيرة على مقدسات الأمة وثوابتها التي تهان هناك، في الوقت الذي غابت فيه فوارس الأمة من عرب وعجم وحاكمين ومحكومين. في مغربنا العربي. ثم بيَّن لهم بعد ذلك أن المعركة مع هؤلاء لا يحكمها العدد والعدة، ولا العساكر والأعوان، وإنما يحكمها ويفصل فيها ميزان اليقين، ونور العزيز الرحيم، لأنها معركة الإيمان والكفر. وفي الأخير ذكرهم بتاريخهم الطويل مع هؤلاء الأعداء حين استولوا على الأندلس وما جاورها من مدن سبتة ومليلية وغيرهما.

والشيخ سيدي المختار(1226هـ)[9] بن سيدي أحمد بن أبي بكر الكنتي ولد سنة 1142هـ، بإقليم أَزَوَاد، درس أوَّلا على يدَي أخيه الأكبر وعلى جده لأمه، ثم انتقل إلى مدينة تمبكتو، وبعدها اتَّصل بشيخه سيدي علي بن النجيب، وعنه أخذ معظم علومه، وعنه أيضا أخذ أوراد الطريقة القادرية، عاش حياته متنقلا في إقليم أزواد الواقعة بين شرق موريتانيا وغرب النيجر وجنوب الجزائر، توفي يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادي الأولى عام 1226هـ، عن عمر ناهز الرابعة والثمانين سنة. من آثاره عشرات المخطوطات في مختلف الفنون منها: ألفية في العربية، بلوغ الوسع في شرح الآيات التسع، تفسير البسملة، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، فتح الودود شرح المقصور والممدود، نضار الذهب في كل فن منتخب، وغيرها من المؤلفات وقد

عدَّها بعضهم (314) مؤلَّفًا. ويوجد حاليًا بنيامي النيجرية مركز مخطوطات باسمه لمؤسسه أحمد دمة الكنتي، وبه عشرات المخطوطات كما أخبرنا مؤسسه. وفي عصرنا الحديث كان للمقاومة الجزائرية الباسلة ضد المحتل الفرنسي دور بارز في تحريك مشاعر التواتيين الذين تفاعلوا معها إيجابا، وخلَّفوا في ذلك عشرات القصائد والنصوص الإبداعية من أمثال الشاعر سيدي حمزة بن مالك القبلاوي، والشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمان والشاعر سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن السكوتي، وغيرهم.

ومما وقفنا عليه في هذا المجال هو قصيدة الشاعر للشيخ حمزة بن مالك القبلاوي في مدح أهل إينغر حين هزموا الفرنسيين عام 1317هـ الموافق لـ 1900م. حيث يقول[10]:

يا أهل إينغر يا أنصار دين الهدى حزتم جميعاً اعز الفخر والسؤددا
مرابطكم وعربكم بأسرهم كذا مواليكم يا ناصرين الهدى
إخواننا يا حماة الدين فَلْيُهِنْكُمْ نصر من الله دائمًا لكم أبدا
نصرتم ملة الإسلام بشرى لكم أنصار دين الرسول المصطفى أحمد
دفعتم بمدافع مؤيدة رجيعها يحتف العدا إذا غرد
بيضتم وجه أهل الدين بعد نُّضُو به كما بكم أسودت وجوه العدا
لا زال حيكم بالله منتصرًا دومًا وميتكم في الله مستشهدًا
لا زلتم الدهر في حصن حصين وفي وقاية الله ءامنين كل الردى
أسررتمونا فلن نزال ندعوا لكم بالنصر والظفر والثبات طول المدى
بالمصطفى خير تسليم عليه كذا أزكى صلاة تعم الصحب أهل الندى

وهي قصيدة من بدايتها إلى نهايتها تمجيد وافتخار بما حققته جيوب المقاومة في هذه المناطق الصحراوية الصعبة. من نصر وإباء وأدخلوا بذلك الفرح والسرور على نفس الشاعر أولا وعلى نفس كل غيور على الوطن والأمة الإسلامية قاطبة.

ولقد ضم الشيخ سيدي الحاج محمد عبد الرحمان بن محمد السكوتي صوته إلى صوت صديقه الشيخ سيدي حمزة بن مالك القبلاوي في الافتخار ببطولة أهل ينغر وشجاعتهم ومقاومتهم للعدو الفرنسي الغاشم حيث يقول هو الآخر[11]:

يا أهل إينغر للسماء مجدكم سما وصيتكم يعلو وينتشر
لله دركم بعتم نفوسكم من الإله بجنة لها خطر
فحبذا ذاك من بيع وعاقده وحبذا ثمن قد ساقه القدر
جاهدتم بنفوسكم وأموالكم في الله لا مسكم أذى ولا ضرر
طوبى لكم حزتم الرضوان الأكبر من إلهكم معه مفاخر أخر
بشرى وروح ورحمة ومغفرة فاستبشروا برضى الإله وافتخروا

نصر من الله مع فتح قريب وعو | نه يعينكم والحفظ والظفر
والنصر يصحبكم متى توجهتم | والعون والفلح والتأييد والبشر
وعداً على الله حقاً سوف ينجزه | والوعد لا يعره التغيير والغير
حازوا جميع المعالي والفخار فلم | يبقوا لغيرهم فخرًا ولم يذروا
لم يرهبوا كثرة العدو إذ جمعوا | لهم وقد حسبلوا من بعد ما صبروا
إذ أيقنوا بعد ذا بنصر وبهم | أكرم بها عصبة بالله ينتصر
من ينصر الله ينصره ويظفره | وليس يقدر أن يكيده بشر
فالنصر ءات لجند الله حقًا كما | أتى بذلك نص الذكر والخبر
يمشون أن حمى الوطيس يوم الوغى | للموت قدماً ونار الحرب تستعر
يرجون في ذاكم رضوان خالقهم | لذاك لم يعرهم ضعف ولا خور
فالدين عز بهم جنابه واحتمى | والكفر يرهقه الإذلال والصغر
رمت حماهم كلاب الروم من سفه | فحاق بالروم ما راموا وما مكروا
راموا خزايا حيارى يحملون على | أكتافهم جيفاً مأواهم سقر
فالأرض من دم كلما هم ملونة | كما بقتلاهم ملئت الحفر
قل للكوافر أن نظمتم حيلة | فأهل إينغر قبل نظمكم شعروا
وأن جمعتم عليهم جنود الردى | فجمع ذا اللف بالتفريق ينتشر
هام العدا نثروا لنظم شمل الهدى | لله ما نظموا في الله ما نثروا
فأصبح الدين في عز وفي صعد | والكفر في درك الإذلال ينحدر
إلى الحضيض ولا زالت وجوه العدا | يغشاهم الخسف والقتار والعفر
بشرى لدين الهدى نصر يعز به | وذمة لم يكن بعهدها خفر
أبقاكم الله تنصرون دين الهدى | كما بكم جيش أهل الكفر ينكسر
كسوتم الناس لبس العز من بعدما | أضحوا عراة ولولاكم لما ستروا
كساكم من جميل الذكر فعلكم | حلىً مدى الدهر لا يعفو لها أثر
أزكى الصلاة على أولى الأنام بها | مع السلام وصحبه ومن نصروا

وبعد سقوط توات كتب سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن قصيدة رثاء وتوسل إلى الله تعالى حيث يقول[12]:

رب إن فرانس الكفر جاروا | في توات وجازفوا بفساد

ختلوا قتلوا وصالوا ونالـوا وأضلوا وخـاطـروا بعنـاد
خوفـوا أمـة توحـد ربًّا واحـدًا أحـدًا بـلا أضـداد
لم يقولوا اتخذت يا رب نجلًا لا ولـم يشركـوا برب العباد
لا ولـم يجعلوا صليبًا ولا نـ دأً مـع الله جـل عـن أنداد
ووعدتهم إلهـي بغـفـرا ن الذنـوب بـدون شـرك معاد
إن تسلط عليهـم أمة الكفـ ر بـجـور وحـوب و بـعاد
فعلى المشـركين فاردد لهم كـر تـهم أبـدًا وطـول الأمـاد
وعلى كل من يواددهـم مـن قطـرنا مـن منافقيـن شِـراد
رب إن تهلك أمة المصطفى لـم يبق في الأرض مومن ذو رشاد
رب إنك قلت هـم خيـر أمـة أخرجت فانصرن بنصر يـفاد
قد رددت لنسل يعقوب فيـما قد مضى كـرة على أوغـاد
فلا أمـة أحـمد أكرم الخلـ ـق عليـك وأصفى في كل ناد
صـل يا ربـنا وسـلم عليه وعلى ءالـه الطوال النجاد
من بدايـة نـوره فـي ظلام الشـرك يلمع نوره في البـلاد

ولعل من أهم وأندر الكتابات النثرية التي سجلت حضورها مع المقاومة نجد نص الشيخ سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن الذي كتب نصًّا مطولًا، يصف فيه ما حل بتوات بعد دخول الفرنسيين أراضيها.

والنص في مضمونه واحد من أهم الوثائق التاريخية التي شارك بها الكتاب مجموع المؤرخين في تسجيلهم لشهاداتهم ومعايشتهم لأحداث عصرهم حيث أن الرجل لم يكتف بعرض ما وقعت عليه عينه من أحداث بل تعداها إلى وصف بعض المقاطع المكملة للمشهد من ضبط لزمان ومكان الهجوم شمالا وجنوبا بداية، مرورا بأهم المظاهر الاجتماعية المتفشية في المجتمع قبيل الاحتلال، والتي رآها سببا مباشرا في تسهيل دخول العدو، ووصولا إلى الحديث عن أهم الوسائل المستعملة ماديا ومعنويا في النيل من أبناء الإقليم، وهو ما تطلب في النهاية حسب قوله التسليم بالقضاء دون المُقْضَى به، لأن الرضى فيها بالقضاء –كما قال استسلام، والرضى بالمقضى فيها اجترام. وفي كل ذلك يقول[13]:

"الحمد لله الذي جعل الحكم يدور مع العلة وجودًا وعلمًا، وطبق الأحكام على النوازل قوانين وحكمًا، وجعل من الكتاب والسنة كليات تشتمل على أفراد وجزئيات، والصلاة والسلام على بحر العلم وينبوعه الزخار، الذي لا يطمع أن يلجه ملك ولا نبي مرسل ولا صديق فضلًا عن أن يبلغ عمقه التيار، وعلى ءاله وصحبه السادات النبلاء الأطواد، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يقوم الأشهاد. أما بعد: فقد تجدد على هذا الإقليم التواتي، ما كان يخاف عليه منه قبل الآن، وهو تهافت طاغية الفرنسيس عليه

لعنة الله، بالعَدَدِ والعُدَد، والأزل والذل، والقتل والأسر، بعام سبعة عشر وثلاثمائة وألف، في طرفه الجنوبي، الذي هو عين صالح، ثم في طرفه الشمالي في هذا العام الثامن عشر. وما نزلت العقوبة بهذا الإقليم، إلا بعد شهادة خياره عليه بنهاية المنكر والظلم والفسق والمجون والرشوة والرين والحرام، وغير ذلك من مترفيه، وغير مترفيه، ولم يتناهوا عن منكر، ومن تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سموه مسخرة ورموه بالحمق والبله والجنون، وربما اغتاله في شبكة كيدهم ومكرهم وحيلهم دأب الشاة مع الذياب، وصار المنكر معروفاً عندهم، والمعروف منكراً، وصارت قوادهم... جباة الأموال، لا دعاة، وكانوا بذلك أطمع من أشعب وأروغ من ثعلب، وأمكر من هرمز، وأحيل من ذيب، وأبطش من أسد، حتى عجت هذه الأرض إلى الله من ظلمهم، مع توحيدهم ومعرفتهم، قال العاصي: وأن الجنة حق وأن النار حق، فسلط الله عليهم من لا يعرفه من غيرهم من الكفرة، كما سلط الله بخت نصر، على بني إسرائيل، بعد شهادة أنبيائهم عليهم بالظلم والفسق والجور والتعدي، فلما كان ما كان وانتدبت عصابة من هذا الإقليم لرد الكفرة المذكورين فلم تكن عاقبة، لا والله قد ضمن العاقبة للمتقين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على ما حدث من هذا الحادث العظيم، الذي احترقت منه الأكباد، لولا التفويض والتسليم لرب العباد، وقد رضينا بقضاء الله في هذه الحادثة لإخواننا المسلمين من القتل والأسر وضياع الأموال، وما رضينا بالمقضى به لهم، وهو الولاية الكفرانية، لأن الرضى بالمعصية معصية، وبالكفر كفر، وهذه المسألة التي يرضى فيها بالقضاء دون المقضى به، كان الرضى فيها بالقضاء استسلام والرضى بالمقضى فيها اجترام..." . والنص إلى جانب كونه وثيقة تاريخية مهمة في تاريخ المقاومة بالإقليم ، فإنه جاء يحمل كثيرا من بصمات الكاتب الإبداعية، وحسن استغلاله لمعجمه اللغوي الذي جاء بسيطا ومنسجما يتطلع إلى إيصال الفكرة من أقرب الطرق الممكنة، وبأبسط الوسائل المتاحة، ولذلك رأيناه يستعين أحيانا برصيده الثقافي والمعرفي في تقريب الصورة من جهة وبما أتيح له من عنصر البيان والبديع من غير ما إفراط أو تفريط من جهة أخرى.

الخاتمة

الخلاصة أن مجمل هذه القصائد جاءت في مضمونها وموضوعاتها لتعكس ثقافة ووعي أصحابها وما لف حولها من أجواء قومية ووطنية خاصة استمدت معالمها من طابع الموضوع الحساس ومن موقع الإقليم المتميز. ولذلك فإن جلّ ما وقفنا عليه من إنتاج التواتيين في هذه الموضوع قد طبع بميزة البساطة والسهولة لغة وأسلوبا، بعيدا عن الغرابة والتعقي، وفي ظننا أن هذا الأمر لم يكن باختيار الشعراء أنفسهم بل كان نتيجة حتمية لحال مجتمع غلبت عليه الأمية وتعقبته أحيانا إلى مدارس تحفيظ القرآن والأحاديث النبوية المنتشرة في الإقليم. ونتيجة لكل هذا وذاك راح الشعراء يعبرون عن معانيهم بألفاظ وتراكيب سهلة بعيدة عن الخيال الجانح والتصوير المعقد والرمز الغامض. وبهذه النماذج الأدبية يمكن القول أن شعراء توات لم يكن ليفصلهم عن هموم أمتهم وقضايا دينهم حاجز الزمان والمكان أو بقية الحواجز الأخرى، فسجلوا حضورهم القومي بكل عز وافتخار، وكانت هذه النصوص خير شاهد على تأثر هؤلاء جميعا بمجريات أحداث الأمة، فشاركوا في الزود عنها أولا، والتأريخ لها ثانيا، وهو ما يعكس ثقافة الجميع ومتابعتهم لكافة الأحداث التاريخية.

المصادر والمراجع

1 ينظر: أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب، 1990م، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ج1، ص 173. وأ. د. الربعي بن سلامة وآخرون: موسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، 2002م، الطبعة الأولى، عين مليلة الجزائر، ج1، ص 184183.

2 المقصود هي الحملة الصليبية الفرنسية على مصر بقيادة نابليون في سنوات 18011798هـ، وضربه الأزهر الشريف بالقنابل من القلعة، واتخاذه اصطبلًا للخيل، ومحاولة اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام. ينظر: محمد قطب: وقعنا المعاصر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1989م، الطبعة الثانية، الوعاية الجزائر، ص 204 وما بعدها. ود. علاء طاهر: كتاب العالم الإسلامي في الإستراتيجيات العالمية المعاصرة، دار بلال، 1998م، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ص345 وما بعدها.

3 مخطوط القصيدة في خزانة قصر باعبد الله أدرار، الجزائر.

4 ينظر ترجمته في: محمد بن عبد القادر بن عمر التنلاني: الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، خزانة قصر كوسام، ولاية أدرار، ص 5، وما بعدها، والشيخ محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن عمر التنلاني، 2005م، الجزائر، ص8.

5 ينظر: سيدي أحمد زوزق: مخطوط قصيدة في نسب آل جعفر بزاوية بودة أدرار. ومخطوط الدرة الفاخرة، ص5، ومخطوط غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل: جمع مشترك بين سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمان، وابنه سيدي عبد العزيز وسيدي محمد العالم البكري بن سيدي محمد الجزولي، خزانة تمنطيط أدرار، ص8. وكتاب التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص 116 وما بعدها. والصديق الحاج أحمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 إلى القرن 14هـ /17م إلى 20م، 2003م، الجزائر. والشيخ مولاي التهامي: سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، مارس 2005م، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر، ج1، ص114.

6 القصيدة جاءت مخطوطة في نسختين (ا) و(ب)، وهي من البحر السريع وفي ثلاثين بيتا. ينظر: خزانة قصر بودة أدرار، وخزانة قصر باعبد الله

7 ينظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1989م، ص 204 وما بعدها.

8 ينظر: قبيلة كنتة بين إقليمي توات والأزواد دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية أثناء القرنين 1312هـ: رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر: إعداد محمد حوتية، إشراف ناصر الدين سعيدوني، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1412ه1993م، ص183.

9 ينظر ترجمته في: الشيخ سيدي محمدبن المختار: الطرائف والتلائدمن كرامات الشيخين الوالدة والوالد، خزانة قصرزاوية كنتة أدرار مخطوط الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، وكتاب التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص120 ومابعدها، وأبو عبد الله الطالب محمد: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص152 وما بعدها، وبول مارتي: كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، ص39 وما بعدها، والشيخ سيد المختار الكنتي: فتح الودود شرح المقصور والممدود، تحقيق مأمون محمد أحمد، 1423هـ/2002م، ص9 وما بعدها.

10 ينظر: مخطوط القصيدة في خزانة باعبد الله بأدرار، ص5.

11 ينظر: مخطوط القصيدة في خزانة باعبد الله بأدرار، ص12.

12 ينظر: مخطوط القصيدة في خزانة البكريين بتمنطيط، ص9.

13 ينظر: مخطوط المقال في خزانة البكريين تمنطيط، ص6.